
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

كراسات الطفولة التونسية عدد 10
سبتمبر 2001

التّفاعل الإجتماعي والتّنشئة : «دراسة ميدانية» ملخّص لبحث الدّراسات المعمّقة

الحبيب المبروكي
مدرّس وباحث بالمعهد الأعلى
لأطارات الطّفولة قرطاج درمش

الكلمات المفاتيح : التنشئة الإجتماعية / العروشية / القبلية / التحوّلات الإجتماعية / الصّراع الإجتماعي.

يندرج بحثنا هذا في إطار الحصول على شهادة الدراسات المعمقة وقد تناولنا ظاهرة استرعت إنتباهنا منذ النشأة الأولى في أواقع اتسم بالانغلاق وبطء نسق التغير والتحولات الاجتماعية هذه الظاهرة هي تفعيل العلاقات القرابية والاعتماد على المخزون الثقافي في التشكلات الاجتماعية بكل مضامينها السياسية والجمعياتية والمنظماتية وحتى المؤسساتية. فافترضنا أن هذه الظاهرة هي وليدة عملية تنشئة معينة أعادت إنتاجها ودعّمت بناها ومكنتها من الانتكاسة أو أن تطفح كلما اختنق المجتمع وعاش أزمات معينة.

كما افترضنا أيضا أن التوزيع الحالي على الرقعة الترابية لمجتمع الدراسة (منطقة الرديف، مدينة منجمية بالجنوب الغربي للجنوب التونسي) جعل عملية التفاعل والإنصهار الكلي لا يصل مداه رغم كل الأشكال التي تشهدها مشاهدة العين...

والافتراض الأخير يعتبر أن التركيبة الاستعمارية التي وضعت لهذه المنطقة تضمنت على ملامح الفرقى والتشتت على اتبار انها كانت مسرحا للصراعات العروشية بين بعض فروع من عروش أولاد سيدي عبيد وأخرى من عروش أولاد بويحيى لأن عملية تقسيم الأرض ترك مجالات من الأراضي المشتركة في الاستعمال والرعي دون تحديد دقيق الملكية مما جعل هذا العامل يظل مرشحا للانفجار في كل حين.

وفي متابعتنا لهذه الظاهرة تناولنا بالدراسة والتحليل بعض المؤسسات والمنظمات والجمعيات التي قدرنا أنها مجالا حيويا توظف فيه العلاقات القرابية وتشحن فيه العقليات بكل المخزون العروشي ويتم خلالها استحضار كل أشكال الصراعات بأنواعها.

ولعل أهم هذه المؤسسات التي درسناها هي المنظمة النقابية لمنجم الرديف وتتبعنا تركيبتها ووقفنا على كل مراحلها التاريخية منذ النشأة الى الآن وحاولنا فهم وتحليل هذه التركيبة ومنطقها الفاعل الذي يحكمها حسب الاعتماد على المشروعية التاريخية.

كذلك تناولنا مؤسسة البلدية كأحد المؤسسات الرسمية للدولة والمجسمة لملامحها وتوجهاتها السياسية وتحتكم على نسق مندرج ضمن منظومة متكاملة لاختيارات وتوجهات دولة الاستقلال في وقتنا الحالي، ومن ثمة حاولنا فهم وتحليل هذا الاحتكار المطلق لرئاسة البلدية من طرف عرش دون سواه تقريبا منذ إنبعاث هذه المؤسسة. ما الحكمة في ذلك، ما الذي منع منطق التداول والتغير؟ كيف يتعامل الأهالي مع هذا المكتسب ؟..

ثم تتبعنا الظاهرة في وسط آخر أكثر انسيابا تتجسم فيه العلاقات الإجتماعية وفق منطق آخر اعتقدنا أنه لا يخضع للمنفعية والمصلحية والاختيارات الضيقة وهو جمعية كرة القدم، هذا الفضاء الاجتماعي الذي كان أكثر صدقاً في انعكاس حقيقة الواقع الاجتماعي ومعرفة هذا الحيز من الوقت الشخصي الذي تم الاتفاق على تسميته بالوقت الحر، كيف يوظف من هم الفاعلون فيه، كيف تم استدراجي إلى نفس المنطق العروشي؟

ورصدنا ايضا الظاهرة من خلال التفاعل داخل الفضاءات غير الرسمية أو الشكلية مثل المقهى لمزيد فهم هذا الواقع ومتابعة تركيبة في مختلف أبعادها.

وللإحاطة بالظاهرة من جوانبها المتعددة إعتمدنا على عدة تقنيات لعل أهمها تقنية تحليل المضمون والمقابلات والملاحظة بالمعايشة إلى جانب اعتمادنا على مكاسبنا المعرفية لهذا الواقع الذي أعد أحد أطرافه ولعل هذا ما جعلني نشعر بثقل المسؤولية وبالحرج المهنجي لفصل الباحث عن مؤثرات البحث وانزلاقاته فكثرة التقنيات وتعددها هو الذي أمن هذه المسافة بيني وبين واقع الأشياء.

أمّا البراديغم الذي جرى الاعتماد عليه فهو «التفاعلية الرمزية» نظرا لأنه الأكثر تلاؤما وقدرة لفهم الواقع من خلال الافتراض الذي يضعه على أن الحياة وحدها قادرة على فهم الواقع من خلال تفاعلها الذي يرفض واقعا اجتماعيا ما بمعزل عن الوضعيات الفعلية المتداولة. ولأن هذا البراديغم لا يكبل الباحث بمحددات قبلية بل على العكس يترك له مجالا من الارتجال والمبادرة وهو أكثر إلتصاقا بالواقع وبالظواهر المتفاعلة داخله.

وتبرير دراستنا لهذا العينة في المدن المنجمية يعود أساسا لتوفرها على الخصوصية الثرية بوفرة المعاني وهي مدينة رديفة للجبل لذلك أطلق عليها اسم «الرديف» تركيبتها تراوح بين البداوة والحضر وتشكيلتها السكانية غير مستقرة ومتعددة الأصول كما أن توزيع الأحياء والتعامل مع هذا الفضاء الإجتماعي في بعديه الجغرافي والثقافي يمثلان عائقا لا تخدم عملية الاندماج فعودة ظاهرة العروشية كما يفترض بعض المختصين، بنية لم يتم تجاوزها مطلقا بل كانت دائمة الحضور ولا تعلى عن حضورها إلا حين يتعرض المجتمع إلى هزة يفقد على إثرها توازنه..

ونظرا لغياب الدراسات المختصة لهذا الواقع، وتجعل من هذا الفراغ ضرورة تدفع إلى تخصيصية هذه المحاولة البحثية المتواضعة.

فكان طرحنا للاشكالية كالتالي :

«رغم التحولات الاجتماعية المتواصلة وما تتضمنه من تفاعل إجتماعي فإننا نسجل عودة بعض الممارسات المستوحاة من روح القبيلة

والحاضنة لمضامين قرابية في إطار اجتماعي اتسم بالتركيبة العروشية والبنية التقليدية مما يجعل عملية تجاوز المجمع لمؤسساته التقليدية مسألة لا يزال يدور حولها جدل واختلاف معرفي، بل هنالك افتراق لمرحلة الحداثة واصرار على التعايش معها في لبوس جديدا. لذلك بدت المؤسسة الأولية وكأنها تعيد انتاج الظاهرة من خلال تنشئة اجتماعية معينة عاكسة لواقع المجتمع ومتفاعلة معه داخل فضاء اجتماعي غير مستقل عن المعادلة»..

لقد اتسم مجتمع الدراسة إذن باستمرارية العائلة الممتدة كإطار اجتماعي وهيكل لا يزال فاعل في النسيج العلائقي ولعل هذا ما يعطي مبررا لبقاء العرش كمفهوم متداول وكقيمة اجتماعية لا يمكن تجاهلها. فلإن وصفها Guelluer بخاصيتين: الانقسام والهامشية وحالات الإصهار والانشطار فهي أيضا الإطار والهيكل الاجتماعي الذي تتوفر داخله علاقات أولية أساسها القرابة وهي الإطار الذي يذوب عن طريقه مفهوم الأسرة في الذات الكلية. فهو الفضاء المنتج لمشاعر التضامن التقليدي والتعصب الدموي الذي يحيلنا على العروشية والجهوية.

وداخل هذا الواقع الذي عرف تاريخيا بتركيبته القبلية وبنعراته العروشية حاولنا أن ندرس موقع الأسرة كأحد أركان هذا المجتمع والتي كما يسميها عبد الوهاب بوحديبة هي الأرض التي تشيد فوقها الثقافة والحضارة، فالأسرة كانت دائما ناقلة للموروث في الوضعيات الصعبة.

غير أن الحداثة جعلت الأسرة تنتقل من مصدر القوة ورمز الوحدة والمؤسسة التي تنجز كل المهمات الى مؤسسة تبحث عن اثبات لدورها والاضطلاع بوظيفة تليق بها. وفي هذا المستوى لاحظنا تراجعا للأسرة الممتدة لفائدة المؤسسة النووية وبدأ البيت ينتقل شيئا فشيئا ملاذا من الضغوطات الحياتية والاجتماعية بعد أن كان شديد الاندماج والتفاعل مع الجماعة وهمومها.

وشيئا فشيئا بدأ هذا المفهوم يشهد انفجارا هيكليا فبدأت الأسرة تنعزل جغرافيا عن الأقرباء حتى وإن كانت تحتفظ معهم بعلاقات الجيرة وأصبح بيت الجد أو العائلة غير قادر على استيعاب التناقضات الاجتماعية ولا أن نحل مشاكل أفراد الأسرة بل ظلت فقط عبارة عن مجموعة ضغط. كما أن الأبناء أصبحت عبئاً اقتصاديا ثقيلا إذ لم يعد

الطفل منتوجا جماعيا داخل العائلة الموسعة التي تساهم في عملية التربية والمتابعة والضبط الى منتوج الأسرة النووية فقط وهذا التراجع يعود أساسا لما تكلفه العلاقات القرابية المفتوحة من أعباء في الوقت والجهد والمال.

ومن جهة أخرى يمكن الإشارة إلى أن هذه المدينة التي شكلت مجتمع الدراسة قد عرفت أحياؤها السكانية تقسيما يساير طبيعة سكان المنطقة ذوي الأصول البدوية والعشائرية فاحتفاظهم بمحاورة الأرض والاستقرار على تخومها مع الإبقاء على شكل الانتصاب الذي كانت عليه الخيام سابقا، هذا ما قلص من فرص الاختلاط مع المحيط بشكل كلي.

فهذا الفضاء الذي انتصبت به العروش أولاد بويحيى وأولاد سيدي عبيد كرست فيه الخلفية العروشية، فكان عنصرا محددا في العملية التفاعلية ولاعتبار أن المقاربة التفاعلية تعتبر أن الفضاء واحدا من متغيرات العلاقة البين - شخصية. لذلك فإن تغير هذا الواقع لابد أن يكون عبر إدراج علاقات اجتماعية جديدة يمكن من خلالها أن يغير الإنسان علاقته بالفضاء.

وظلت العروش المتصارعة تنتمي إلى نفس المدينة وتعيش نفس الظروف الاجتماعية إلا أنها لم تتقارب جغرافيا وظلت معزولة عن بعضها بحكم الأحياء العازلة لمسافات التلاقي والمتكونة من فئة الوافدين. وبقيت فرق أولاد سيدي بويحي خاصة بعيدة عن المركز وأكثر انغلاقا من غيرها ولم تنسج علاقات تجاور حميمية.

كما أن ظروف العمل المنجمي ونمطيته والعمل السياسي والنقابي والعمل الجمعياتي لم تستطع أن تقرّب الهوة ولا أن يئد الخلافات التي عرفتها هذه الفئات بل بدأت حالة الصراع والاختلاف وكأنه واقع لا مفر منه فحتى مسايرة السلطة لهذا الوضع ومحافضتها عليه كما هو لا يعدو أن يكن إقرارا له وتوظيف لما يفيد إمكانية السيطرة عليه والاحتفاظ على استقرار اجتماعي وتوازن محلي ووفق المنطق السائد بذلك يصبح الصراع واقعا يستفيد منه كل الأطراف بما فيها النخبة التي تلجأ إلى الرصيد القرابي لتوظيفه بغية بلوغ أهدافها وتحقيق ترقّ

إجتماعي كذلك الشأن بالنسبة لفئة السكان الوافدين فإنهم ظلوا يلعبون على التوازنات من خلال توظيف الاختلافات بين السكان أصيلي المنطقة.

وما تجدر ملاحظته أيضا هو أن العمل النقابي تحول من واجهة نظالية لتحقيق مطالب وطنية وتحسين لوضع العمال وظروف العمل إلى موروث يتداول ويمرر بين عروش بعينها إذ تبين ان نسبة 20% من الموجودين في المكتب المحلي لنقابة المنجم لهم أحد أقاربهم قد شغل منصبا مسؤولا من عروش أولاد بويحي بما مكنهم من المشروعية التاريخية في الاشراف على هذه المنظمة النقابية بشكل تداولي.

أما على مستوى الجمعية الرياضية فإنها عرفت هي الأخرى منذ نشأتها تسييرا من قبل العناصر(*) الوافدة.

كما كانت نسبة الوافدين من اللاعبين أرفع أيضا، ولاعتباره فضاء يتضمن على علاقات أولية فإنه كان يقدم خدمات اجتماعية هامة. فبعد أن كانت الجمعية فضاء التشغيل والتأطير والتفاعل والاندماج، أصبح فضاء للإقصاء وتكريس لنفس المنطق الذي تعتمده بقية المؤسسات الأخرى.

والاعتماد على هذا المنطق هو أسلوب لا يخلو من الوصولية والبحث عن الحلول الآنية والفردانية كما يمكن أن يكون منطقا وخيارا حمائيا لبلوغ مصالحة مع الذات وتحقيق انتظارات ورغبة الكهول.

ـ أسباب اختيار البحث :

هنالك أسباب ذاتية وأخرى موضوعية :

ـ **الأسباب الذاتية :** نظرا لأنني أصنف ضمن الفئة المدروسة ونشأت ضمن هذا الواقع الذي تسوده ازدواجية في المعايير وتداخل في القيم

(*) الوافدون : هم السكّان غير أصيلي المنطقة (ليسوا من عروش أولاد سيدي عبيد أو أولاد بويحيى).

داخل إطار قرابي لا تزال الاعتماد فيه على العلاقات العائلية هي السائدة وأغلب المشاكل والوضعيات الاجتماعية تحل داخل هذا الاطار لكنه في نفس الوقت له علاقات قبولية مع الوافد وبعض الانفلاتات التي توحي بحداثته.

- **الأسباب الموضوعية :** دراسة المدن المنجمية ذات الخصوصية لوفرة المعاني لم تشملها دراسات مكثفة ومتعددة التخصصات إلا في محاولات قليلة متباعدة في الزمن.

علاوة على أنها تعد من المدن الحديثة النشأة لكنها تنفرد بتركيبة سكانية غير مستقرة ومتنوعة الأصول وتم توزيعها الجالي للأحياء بشكل ملفت للإنتباه.

ونظرا لعدم انقطاعنا عن هذه الجهة ومواكبتنا لكل التحولات التي عاشتها وتعيشها، فإننا قد لاحظنا عودة قوية لظاهرة «العروشية» التي يفترض بعض المختصين أنها وإن إنحلت كبنية فإنه لم يقع تجاوزها مطلقا بل كانت دائمة الحضور ولا تعلن عن حضورها.

في حين يرى البعض الآخر أنّ الحديث عن هذه الظاهرة أصبح يتعلق ببعض التخصصات الأخرى مثل الانتربولوجيا والتاريخ وغير هما لأن هذه التركيبة قد أكلت وغابت معها كل المؤسسات التي لها صلة مثل المشيخة على حد قول الدكتور نجيب بوطالب. وطرق التدريس التقليدية ومؤسساتها، فحتّي نفهم هذه الظاهرة، جذورها، منظومتها، وآثارها ، تمظهراتها السلوكية والمنطق الناظم لها، وفهم سرّ استمراريتها وهذا الاتفاق غير المعلن بضرورة الحفاظ عليها وتكريسها بين مختلف الفاعلين داخل هذا الواقع المنجمي.

ولاعتبار أن تصبح الظاهرة يفترض بالضرورة العودة إلى المحضن الرئيسي إلا أن عملية التنشئة تظل عملية صعبة المسك ومتخارجة عن كل محاولة تحكم في نتائجها، نظراً لتشابك الأطراف والفاعلين فيها فلا تخضع كثيرا لقواعد القياس والمعالجة الاحصائية، بل أن الأمور تحسب بنواتجها ولأن براديغم التفاعلي الرمزي يعتقد أن عملية التنشئة يمكن أن تغيب أو تنحل داخل العملية التفاعلية.

أما دراستنا للفضاء فذلك لاعتقادنا أنه لا يشكل في الواقع إلا هيكلة تتماثل مع الأشكال الاجتماعية التي يحبسها وكل حصر وإغلاق للفضاء لا يعكس في حقيقته الأمر إلا حصراً وإغلاقا إجتماعيا.

فالفضاء هو عنصر في العملية التفاعلية، كما أن تنظيم الفضاء شديد الارتباط بتنظيم الزمن إذ تعتبر المقاربة التفاعلية للفضاء على أنه واحد من متغيرات العلاقة البين - شخصية علاقة تواصل من الأكثر حميمية إلى الأكثر اجتماعية.

إذ أن تغير المجتمع لابد أن تكون عبر ادراج علاقات اجتماعية جديدة يمكن من خلالها أن يغير الانسان علاقته بالفضاء. ولاعتبار أن هذا التوظيف للفضاء داخل إطار مجتمع الدراسة منقسمة إلى دوائر متعددة (عائلات، عروش، تجمعات جهوية) وذلك مما يتيح لها امكانية الاحتفاظ باسرارها وطقوسها وعاداتها المعيشية ويمتاز نمط العيش داخل هذه الأوساط بتلاحم قوي.

فالسكن هو اسقاط للعلاقات الاجتماعية فوق المجال وهو منتوج تلك العلاقات والموجه المادي لها.

وعلى اعتبار أن الصراع داخل هذا الفضاء المنجمي يعد واقع يستفيد منه كل الأطراف لأنه يشحن التحالفات ويحفز تشغيل الميكانيزمات التقليدية، وهي أيضا فرصة لممارسة عدة استراتيجيات من لدن الفاعلين لما يفرضه أيضا من محددات خفية لعل الغاية منها السعي للترقي وتدعيم المراكز الاجتماعية، فبدأ هنالك شبه إتفاق أو تسليم على إستمرارية هذا المنطق مادام يحقق أغراض كل المتصارعين.

فبعض المفارقات التي تم تسجيلها قد لا تخرج عن هذا المنطق فأن يصبح العمل النقابي مثلا عبارة عن موروث يتداول ويمرر بين الأجيال عند عروش أولاد بويحيى فهذا وإن بدأ غريب ولا يتفق مع المنهج التفاعلي الذي يقر بأن النماذج السلوكية هي إنتاج التفاعل الاجتماعي وليست العوامل الوراثية كمحددة له.

وبذلك يصبح هذا التداول إحياء للنعرة العروشية وتثبيت لأسباب الفرقى (الأرض، السلطة، المال).

كذلك فضاء المقهى كإطار يخضع لمنظومة خاصة به لأنه لا يحترم الثوابت الاجتماعية. بل أنه يتشكل وفق تقاطعات أخرى تغيب عنها الروابط العروشية وينسج بداخلها ترابطات أخرى قطاعية أو فئوية أو نخبوية. كأن نجد ركن للطلبة وجزء آخر يجمع النقابيين وآخر للرياضيين. فالسياسيين.

فهذا التقسيم يصبح قادر على استيعاب الانشطارات العشائرية ويصرح مجال فعل متنوع وثري بثراء العلاقات وتنوعها. غير أن هذه المجموعات الفرعية قد تعرف إلتفافا حولها كلما وصلت إلى العرش

أهم استنتاجات البحث :

إن التنشئة الاجتماعية على اعتبارها سياق تمثل الأفراد للجماعات أي تثبيت لقيم ورموز وتدرب على أدوار للأنساق الإجتماعية ليحصل على الإقتدار الأدنى للإنجاز والتفكير والشعور المرتبط بالجماعة ولأنها عملية استبطان وتعلم دائمة فإن العودة إلى العلاقات القرابية وتفعيلها يكشف مدى تأثير الإستراتيجيات الشخصية (التكلفة، الربح، الجدوى) مما يجعل تأثير المؤسسات التعليمية سريع التراجع أمام منطق الفعل (الواقع).

كذلك نسجل تغيرا على مستوى شكل الأسرة ومجال فعلها إذ بدأت ترفض الأشكال المفتوحة والعفوية المعتمدة على القرابة وعلى علاقات الدم. وهذا التوجه نتج عنه ضمور في الحس الجمعي ولم تعد الأسرة على مقدرة لمجابهة التحولات المتتالية وعلى مسايرة الشاب وفهم احتياجاته وانتظاراته.

وهذا التحول نتج عنه تحول في مفهوم البيت الذي عرف هو الآخر انغلاقا ولم تعد العلاقات أولية وتلقائية بل عرفت تحولا نحو التقنين والإجرائية وانحصر فيه عدد الفاعلين، وهذا ما يجعلنا نقول بأن الأسرة أصبحت تعيش واقعين متصارعين، حاضر يفترض تنوعا وليونة وتجديدا في المواقف والمعارف، وماض لا يزال حيا من خلال منظومة القيمية والمعيارية التي تتحكم في العلاقات وتقدم بتحديد مواقع الأسر.

كما أن التراجع الديمغرافي الذي تعرفه المنطقة بسبب عودة العمال ذوي الأصول السكانية المتنوعة وغياب مجالات التنافس والصراع الذي كان يحفز أهل المنطقة لخلق ديناميكية داخل المنظمات، الجمعيات، العمل السياسي والنقابي.

كذلك تراجع شركة فسفاط قفصة على استيعاب اليد العاملة الشابة والاكتفاء بنسبة بسيطة اعتمدت على تفعيل المنطق العروشي.

فهذا الاعتماد المتزايد للمنظومة التقليدية جعل من العلاقة السكانة بين المنظومة الحالية (الحداثة) وسالفتها تتحول من علاقة تكامل وانسجام إلى علاقة توتر وصراع وهذا ما جعل هذه الظاهرة تنتقل من طابعها المتعارف عليه الى حقيقة قابلة للتشكل.

إنّ النتائج التي تم التوصل إليها تعتبر في الحقيقة منطلقا الى توسيع مجال البحث لشمل المناطق المنجمية لما تتضمنه من ثراء وما تشهده من تحولات في البنية والعلاقات وما يمثله هاجس المرحلة ما بعد منجمية من حيرة وتساؤل؟